قراءة في كتاب
رحلتي الفكرية في البذور والجذور والثمار*
تأليف: عبد الوهاب المسيري**

فؤاد عفاني***

أولاً: السيرة الفكرية؛ رؤية من الداخل

إن الكتابة الإبداعية للدكتور عبد الوهاب المسيري –رحمه الله– لم تنل من القراءة والمتابعة النقدية ما حظيت به إسهاماته الفكرية؛ إذ لا نجد ضمن ببليوغرافيا الدراسات المنجزة عن أعمال المسيري،[1] سوى أبحاث قليلة انبرت لدراسة إنتاجه الإبداعي،[2] بوصفه مكوناً نوعياً ضمن المشروع العام.

---

* المسيري، عبد الوهاب. **رحلتي الفكرية في البذور والجذور والثمار**، القاهرة: دار الشروق، ط١، ٢٠٠٥م. هذه النسخة التي نعتمد عليها في المراجعة ورد عنوانها على الغلاف الخارجي بالصيغة المثبتة أعلاه، فكلمة "الثمار" وردت بالمد. أمّا في المتن فترد دون مدّ (ثَمَر)، وهي الصيغة التي ورد بها عنوان طبعتي ٢٠٠٠م و ٢٠٠٦م، ممّا يرجّح أنه اللفظ المقصود. كما أن لسان العرب يثبت أن جمع الثّمر ثمار، ويقع الثمر على كل الثمار ويغلب على ثمر النخل، وغالب الظن أن المسيري قد استحضر هذين المعنيين. كما وجب التنبيه على أن هذه النسخة غفلت عن ذكر العنوان الفرعي "سيرة غير ذاتية غير موضوعية" من الغلاف الخارجي، ولم ترد إلا في المتن (ص٥)، ومعلوم أن هذا العنوان الفرعي وارد في طبعتي عام ٢٠٠٠م و ٢٠٠٦م.

** دكتوراه في الأدب الإنجليزي والأمريكي المقارن من جامعة رتجرز بالولايات المتحدة الأمريكية، عام ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م، توفي –رحمة الله– عام ٢٠٠٨م.

*** دكتوراه في الأدب العربي الحديث، أستاذ بالثانوي التأهيلي بالمملكة المغربية. البريد الإلكتروني: Luai1111@hotmail.com

تم تسلّم القراءة بتاريخ ٢٠١١/١٢/١٢م، وقُبلت للنشر بتاريخ ٢٠١٢/١/٢١م.

[1] نحيل في هذا الإطار على دراسة قيد النشر للزميل أحمد مرزاق: "فكر عبد الوهاب المسيري: مشروع قراءة معرفية"، ضمن كتاب "المسيري بأقلام مغربية"، سينشر قريباً.

[2] نشير هنا إلى الدراسات الآتية:

– فؤاد، جيهان فاروق. رحابة الإنسانية المركبة في الرحلة الفكرية والسيرة الشعبية وقصص الأطفال، ضمن: **"في عالم عبد الوهاب المسيري"**، القاهرة: دار الشروق، ط١، ٢٠٠٤م.

– الوكيل، سعيد. التداخل النصي في قصص الأطفال عند عبد الوهاب المسيري، ضمن:" **عبد الوهاب المسيري في عيون أصدقائه ونقاده**"، دمشق: دار الفكر، ط١، ٢٠٠٨م.

إنَّ الإسهام الأدبي للدكتور عبد الوهاب المسيري نحَا منحيين اثنين:

أ. منحى نظرياً: أخذ هذا المنحي الإبداعَ موضوعاً له، فتناوله بالدراسة والتحليل والنقد، وتحقّق ذلك في الأعمال الآتية:

– مختارات من الشعر الرومانتيكي الإنجليزي: النصوص الأساسية، وبعض الدراسات التاريخية والنقدية، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٩م.

– في الأدب والفكر: دراسات في الشعر والنثر، القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ط١، ٢٠٠٧م.

– دراسات في الشعر، القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ط١، ٢٠٠٧م.

ب. منحىً إبداعياً: تمثّل ذلك في ترجمته لمسرحية غنائية عن تحديث اليابان، وفي رحلته الفكرية، وفي قصص الأطفال الآتية:

– الأميرة والشاعر، القاهرة: الفتى العربي، ١٩٩٣م.

– نور والذئب الشهير بالمكار، القاهرة: دار الشروق، ١٩٩٩م.

– سندريلا وزينب هانم خاتون، القاهرة: دار الشروق، ١٩٩٩م.

– الرحلة الأسبوعية إلى جزيرة الدويشة، القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٠م.

– سر اختفاء الذئب الشهير بالمختار، القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٠م.

– معركة... كبيرة... صغيرة، القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٠م.

– قصة خيالية جداً، القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠١م.

– قصص سريعة جداً، القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠١م.

– ما هي النهاية؟ (تأليف بالاشتراك مع جيهان فاروق فؤاد)، القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠١م.

– أغنيات إلى الأشياء الجميلة، ديوان شعر للأطفال، القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٢م.

– بلعقروز، عبد الرزاق. **تحولات الفكر الفلسفي المعاصر أسئلة المفهوم والمعنى والتواصل**، الجزائر: منشورات الاختلاف، ط١، ٢٠٠٩م.

ونظراً إلى تباين طبيعة الكتابة القصصية للطفل وكتابة السيرة الذاتية؛ سنفرد هذه الدراسة للسفر مع المسيري في سيرته الفكرية، لنتناول في دراسة لاحقة أعماله القصصية.

تنطلق السيرة الفكرية للمسيري من المقدمة، وتتوقف بالتتابع في ستّ محطات/ فصول، فرضها السياق الفكري للسيرة.

يوطّئ المسيري لسيرته الفكرية بمهاد عن الظروف التي استدعت الكتابة، المتمثلة بالأساس في الرغبة في نقل تجربته إلى قرّائه عامة، وجيل الشباب خاصة. وقد كان المسيري يودّ في البداية أن يضمّ تلك الأفكار والتأمّلات إلى الموسوعة، ولكن –كما يقول–: "اتسع نطاق التأمل وزاد حجم الصفحات وترابطت الأفكار (الثمر) بجذورها (حياتي الفكرية بأسرها) وببذورها (تكويني في دمنهور)، بحيث وجدت أنها تشمل كل حياتي الفكرية... فانفصلت التأملات والكلمات عن الموسوعة حتى أصبحت عملاً مستقلاً... وكانت النتيجة هي هذه الصفحات: رحلتي الفكرية – في البذور والجذور والثمر: سيرة غير ذاتية غير موضوعية."[٣]

بعد المقدمة، ارتأى المسيري تقسيم السيرة إلى جزأين اثنين؛ وسم الأول منهما بـ"التكوين" بوصفه يتوقف عند محطات أساسية لنشأة المسيري، ولعلَّ ذلك ما يتّضح بجلاء من خلال توزيع الفصول الأربعة لهذا الجزء؛ فالفصل الأول (البذور الأولى) يتوقّف عند البدايات الأولى لتشكل الملامح الفكرية للمسيري، وذلك دون الالتزام بسيرورة زمنية متتالية؛ إذ غالباً ما نجد متابعةً سلسة للفكرة، وإن أدّى ذلك إلى كسر السياق الزمني.

أمّا الفصل الثاني المعنون بـ(بدايات الهوية)، فيرسم المؤلّف من خلاله المعالم الأساس لهويته الفكرية المحددة بقدرته على الانفصال عن الواقع عبر ما يسميه "داء التأمّل"، والقدرة على تحقيق "مسافة" مع الأشياء، وقد عبّر عن مزية هذه القدرة قائلاً: "قد جعلني التأمل قادراً على الانفصال عما حولي وأن أنظر إلى نفسي من الخارج، الأمر الذي ولَّد فِيَّ قدرةً غير عادية على تغيير الذات بناءً على تصورات عقلية مسبقة."[٤]

[٣] المسيري، **رحلتي الفكرية في البذور والجذور والثمار**، مرجع سابق، ص٥.

[٤] المرجع السابق، ص١٦٨.

وفي الفصل الثالث الموسوم بـ (في الولايات المتحدة)، وهو عنوان غني بحمولته مكانيّاً وفكريّاً، ينقلنا المسيري معه في رحلته إلى الولايات المتحدة، متجاوزاً –كعادته– التفاصيل الذاتية المعزولة عن الرؤية الفكرية الكّلية، ليبيّن لنا كيف اصطدم مع النموذج الأمريكي واجتهد في تثبيت نموذجه الخاص، وتنتهي "التجربة الأمريكية" بعودة المسيري إلى مصر وإعلانه الحرب ضد الذئاب الثلاثة –كما يسميها–: "ذئب الثروة، وذئب الشهرة، والذئب الهيجلي المعلوماتي."[٥]

يمثّل الفصل الرابع (من بساطة المادية إلى رحابة الإنسانية والإيمان: تآكل النموذج المادي) تبشيراً باندحار النماذج التحليلية الاختزالية عند المسيري، وميلاد النماذج التحليلية المركبة المتسعة الأفق والمتعددة الأبعاد، التي تخوّل رصداً حقيقياً لإنسانية الإنسان في طبيعته المركبة؛ إذ إنَّ المسيري طوّر "مفهوم المسافة التي تفصل بين الإنسان والطبيعة، وبين الخالق والمخلوق، وبين الجسد والروح. مما يعني أنَّ هناك ثنائية أساسية في الكون، وأنَّ الكون متنوع متعدد غير متجانس، فيه المطلق وفيه النسبي، فيه الثابت وفيه المتحول، قد يتصارعان وقد يتقابلان وقد يتفاعلان، ولكنهما مختلفان."[٦] ويعزو المسيري سبب استبطانه النموذج التحليلي المركّب إلى الأدب، لكونه "التخصص الوحيد الذي لا يزال يتعامل مع الإنسان بوصفه إنساناً؛ أي على أنَّه كل مركّب لا يمكن ردّه إلى عنصر أو عنصرين في الواقع."[٧]

يناقش المسيري في هذا الفصل أيضاً عدداً من القضايا التي هزّت مقولاته المرجعية، وأثارت قلق السؤال عنده، ممّا حداه إلى بناء نموذج تفسيري توليدي (نموذج كلّي)، وأهم تلك القضايا: الدين والهوية، الفردية والنسبية، العقلانية المادية، الإمبريالية والعنصرية، الديموقراطية والقيمة، الجنس والمجتمع الأمريكي، الاستهلاكية والإمبريالية النفسية، العلم والتقدم، الروحي والمادي. إن تلك القضايا سمحت للمسيري أن يدرك بساطة وسذاجة الرؤية المادية الاختزالية التي ينجم عنها تفكيك الإنسان بدل تحريره.

---

[٥] المرجع السابق، ص١١٩–١٢٠.

[٦] المرجع السابق، ص١٧٧.

[٧] المرجع السابق، ص١٧٩.

أمّا في ما يتعلق بالجزء الثاني (عالم الفكر) فقد جاءت أحداثه/أفكاره مؤلفةً من ستة فصول؛ أولها "النماذج الإدراكية والتحليلية من الموضوعية المتلقية إلى الموضوعية الجهادية." ويعرض هذا الفصل الموضوعات الثلاثة الأساسية التي يراها المسيري مترابطة ومتزامنة، وتعبر عن تحوّله من النموذج المادي إلى النموذج الذي يميّز بين الإنسان والطبيعة/المادة، وتتمثّل هذه الموضوعات في:

– التحوّل من الموضوعية الفوتوغرافية (المتلقية والتوثيقية والمادية والمنفصلة عن القيمة) إلى الموضوعية الاجتهادية؛ على أنَّ الموضوعية المتلقية نموذج تحليلي يرى في المعرفة فعلاً تراكمياً يتحقّق بتجميع تفاصيل الواقع المادي دون فاعلية العقل وإبداعه وظروف الإدراك.

– رفض العقل السلبي، وتبنّي رؤية توليدية للعقل، وترتبط هذه القضية بسابقتها؛ فقد نجم عن رفض المسيري للموضوعية الفوتوغرافية بناؤه نموذجاً معرفياً وتحليلياً جديداً "للعقل بحسبانه كياناً توليدياً وليس مجرد وعاء مادي متلقّ للمعلومات،"[٨] مؤسس على المبدأ الكمي الذي لا يُعمل العقل في استنباط النماذج الكامنة.

– رفض الرصد المباشر، وتبني النموذج منهجاً في التحليل؛ فقد واكب الموقفين السابقين تحوّل في الأدوات المنهجية، ممّا دفع المسيري إلى البحث عن أداة تحليلية تُيسّر له عملية الرؤية الكلّية/الشاملة، وتحيط بالواقع المركّب رابطةً بين المستويات المختلفة التي تبدو –أول وهلة– متناقضة، وهكذا جاء مفهوم النموذج بوصفه "بنية تصورية أو خريطة معرفية يجردها عقل الإنسان (بشكل واع أو غير واع) من كمٍّ هائل من العلاقات والتفاصيل والحقائق (الموضوعية)، فهو يستبعد بعضها بحسبانها غير دالَّةٍ (من وجهة نظره)، ويستبقي البعض الآخر. ثم يربط بينها وينسقها تنسيقا خاصا، ويجرِّد منها نمطاً عاماً."[٩] والمميز في نموذج المسيري أنَّه نموذج غير ثابت؛ إذ كلّما احتك وعايَن الواقع وطُبّق عليه تعدّلت مقدرته التفسيرية، فالعلاقة بين الطرفين "حلزونية" كما يصفها المسيري.

---

[٨] المرجع السابق، ص٣٣٨.

[٩] المرجع السابق، ص٣٩٩.

وفي ما يخصّ الفصل الثاني "بعض الثمرات الأولى" تناول المسيري الثمار الأولى التي جناها من اشتغاله بالنماذج التحليلية، وقد كانت أولى تلك المحاولات عام ١٩٦٥م في دراسة باللغة الإنجليزية معنونة بـ"الرأسمالية التنافسية والإنسان الطبيعي"، تبنّى خلالها النموذج التحليلي "الأسطورة الحاكمة."[١٠] لكّن مفهوم النموذج عند المسيري يتجذر من خلال رسالته للدكتوراه،[١١] التي يرى فيها أول أعماله الفكرية المتكاملة التي تداخلت فيها معظم الموضوعات الأساسية (الحلولية- العلمانية الشاملة)، كما أنها أول دراسة مطولة يكتبها مستخدماً النماذج كأداة تحليلية بشكل واع.[١٢]

وبعد رسالة الدكتوراه ينشر المسيري كتابه "الفردوس الأرضي: دراسات وانطباعات عن الحضارة الأمريكية الحديثة (١٩٧٩م)"[١٣] الذي انكبّ فيه على دراسة الواقع الأمريكي من خلال نماذج، وذلك عبر انطلاقه من مقولته الأساسية التي تفصل بين الإنساني والطبيعي، وقد اختار لمؤلَّفه هذا الاسم على اعتبار أنَّ الإنسان الأمريكي يحلم ببناء فردوس أرضي يلغي التاريخ ويخضع للسيطرة المطلقة، ووسم نموذجه المعرفي التحليلي بالرؤية الفردوسية العلمية، وهي "رؤية ميكانيكية بسيطة تفترض أنَّ الإنسان كمٌّ محضٌ لا يختلف عن الكائنات الطبيعية الأخرى، يعكس بيئته بشكل مباشر وبسيط؛ أي إنَّ الإنسان الحديث الذي تمّ تدجينه وترشيده تماماً، هو ذاته الإنسان الطبيعي."[١٤]

يمثّل البحث في إشكالية التحيّز ثاني الثمار التي جناها المسيري من خلال اشتغاله بالنماذج التحليلية، وإذا كانت بدايات هذه الإشكالية بدأت تتبلور منذ الانتقال من دمنهور إلى الإسكندرية وإدراك ما بين العالَمَيْن من تباين، فإن بُعدها الحقيقي تأكد من خلال دراسة المسيري علم الأديان المقارن وتاريخ الفن والأنثروبولوجيا؛ إذ تبيّن الباحث أنَّ "التحيزات المعرفية أمر كامن في نماذجنا الإدراكية، ولذا فهي موجودة بشكل غير

---

[١٠] المرجع السابق، ص٣٦٠.

[١١] جدير بالذكر أن هذه الرسالة لم تُنشَر بعد.

[١٢] المرجع السابق، ص٤٠٧ (بتصرف).

[١٣] نشير في هذا السياق إلى اشتراك المسيري مع الشهيد سيد قطب في الكتابة عن الحياة الأمريكية مع اختلاف في المنهج التحليلي، وقد نُشِر عمل سيد قطب في حلقات ثلاث أواخر عام١٩٥١م، في مجلة الرسالة التي كان يُصدِرها أحمد حسن الزيات.

[١٤] المسيري، **رحلتي الفكرية في البذور والجذور والثمار**، مرجع سابق، ص٤١٦.

واع."[١٥] وللاستدلال على ذلك ينوِّع المسيري تمثيلاته الكاشفة للتحّيز؛ سواء على مستوى الفن، أو اللغة، أو العمارة.

وقد تمخّض عن تفاعل إشكالية التحّيز في فكر المسيري عقد مؤتمر بتمويل من نقابة المهندسين والمعهد العالمي للفكر الإسلامي، هذا المؤتمر الذي سيتوّج بولادة مؤلَّف ضخم عن هذه الإشكالية يضمّ أبحاث عدد من المهتمّين بالتحيزات المعرفية على شتى الأصعدة.[١٦]

ويرى المسيري أن النموذج البديل عن التحّيز لا بدّ أن يكون نابعاً من التراث، وترتسم ملامحه بالانطلاق من اعتبار الإنسان مقولةً غير مادية، ثم من "الإيمان بالنموذج التوليدي لا التراكمي."[١٧]

وإذا ما انتقلنا مع المسيري في رحلته إلى الفصل الثالث المعنون بـ"الصهيونية"، فقد يظن بعضهم أنه تحوّل من الفكري إلى السياسي، إلّا أنَّ ذلك التوقّع سيكون مجانباً للصواب؛ فاهتمام المسيري "بالسياسة كان اهتماماً معرفياً فلسفياً،"[١٨] وكذلك الأمر بالنسبة إلى الصهيونية التي بدأت علاقته بها منذ عام ١٩٦٣م، وذلك حينما توجّه إلى جامعة كولومبيا لنيل درجة الماجستير في الأدب الإنجليزي والمقارن، وتكرّرت هناك مواجهته مع الفكر الصهيوني، التي سمحت له بتعرّف "الصهيونية، لا من منظور عربي، ولا من منظور توراتي يهودي، وإنَّما من منظور عالمي كجزء من التشكيل الحضاري الغربي وتاريخ الأفكار في الغرب."[١٩] من هنا، كانت رؤية المسيري للدولة اليهودية تتجاوز كونها قوة اقتصادية عسكرية سياسية إلى كونها ظاهرة تستند –مرجعياً– إلى الوعد الإلهي.

---

[١٥] المرجع السابق، ص٤٤٠-٤٤١.

[١٦] صدر هذا الكتاب أوّل مرة عام ١٩٩٣م في جزأين ضخمين عن نقابة المهندسين بالقاهرة، ثم عام ١٩٩٥م عن المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ونقابة المهندسين بعنوان: "إشكالية التحيز"، دون عبارة "رؤية معرفية ودعوة للاجتهاد"، وهذه الطبعة هي التي يُشار إليها بوصفها الطبعة الأولى، ثم أعيد نشر الكتاب في طبعتين؛ طبعة ثانية عام ١٤١٧هـ-١٩٩٦م (منقحة ومزيدة)، وطبعة ثالثة عام ١٤١٨هـ-١٩٩٨م، وذلك في سبعة أجزاء تحمل عنوان: "إشكالية التحيّز: رؤية معرفية ودعوة للاجتهاد."

[١٧] المسيري، **رحلتي الفكرية في البذور والجذور والثمار**، مرجع سابق، ص٤٥٣.

[١٨] المرجع السابق، ص٤٥٧.

[١٩] المرجع السابق، ص٤٨٣.

وبعد أن فرغ المسيري من رسالة الدكتوراه اعتمد مقولة "نهاية التاريخ" التحليلية أساساً لدراسة جديدة عنوانها "نهاية التاريخ: مقدمة لدراسة بنية الفكر الصهيوني"، الصادرة عام ١٩٧٢م عن مركز الدراسات الاستراتيجية بالأهرام.[٢٠] ويُقصد بنهاية التاريخ "نهاية التدافع الإنساني والتركيب وإدراك الحدود، هي نهاية الإنسان كما نعرفه وهي الحالة الجنينية بالدرجة الأولى."[٢١] وفي تعليقه على هذا الكتاب، يقدّم المسيري عدداً من المفاهيم المستخدمة في الكتاب من قبيل: الترشيد، ونهاية التاريخ، والنظام العالمي الجديد، وغيرها.

بعد ذلك أصدر المسيري كتاباً من جزأين معنوناً بـ"الإيديولوجيةالصهيونية: دراسة حالة في علم الاجتماع،"[٢٢] ثم تلاه كتاب "الانتفاضة الفلسطينية والأزمة الصهيونية: دراسة في الإدراك والكرامة."[٢٣]

أمّا الفصل الرابع من السيرة الفكرية فقد خصّصه المسيري للموسوعة وتاريخها؛ إذ يؤرّخ فيه لبداية كتابة الموسوعة بعام ١٩٦٤م؛ إذ كانت الانطلاقة الجدية لدراسة الصهيونية، وقد صدرت النسخة الأولى منها عام ١٩٧٥م بعنوان: "موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية: رؤية نقدية"، وهي تميّزت بطابعها التفكيكي مع إغفال عملية البناء. يقول المسيري: "وممّا لا شك فيه أن التفكيك له فائدة، بل هو أمر حتمي وضروري، فهو يكشف المفاهيم الكامنة ويزيل الغشاوات، ولكنه يترك الكثير من جوانب الظاهرة دون تفسير."[٢٤]

---

[٢٠] صدر هذا الكتاب في طبعة أولى أخرى عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر، عام ١٩٧٩م.

[٢١] المسيري، **رحلتي الفكرية في البذور والجذور والثمار**، مرجع سابق، ص٤٩٥.

[٢٢] يذكر المؤلِّف أن الجزأين صدرا -على التوالي- في سنتي ١٩٨٠م-١٩٨١م، في حين أن الجزء الأول صدر عام ١٩٨٢م، والجزء الثاني عام ١٩٨٣م. وللإشارة هنا؛ فالخطأ في سنة النشر يتكرّر في عدد من فهارس كتب المسيري، والراجح هنا أنها أضيفت دون مراجعة؛ لأننا نجد تقريباً لائحة المنشورات ذاتها، بل قد يتضمّن الكتاب اللاحق مسرداً أقل لمؤلَّفات المسيري. ويمكن أن نقارن هنا بين مؤلَّفات الكاتب الواردة في السيرة وتلك الواردة في كتاب "في عالم عبد الوهاب المسيري".

[٢٣] يذكر المؤلِّف أن الكتاب صدر عام ١٩٨٩م، في حين أن أول طبعة كانت عام ١٩٨٧م بتونس، وبعدها طبعة القاهرة سنة ١٩٨٨م، ثم طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب عام ٢٠٠٠م.

[٢٤] المسيري، **رحلتي الفكرية في البذور والجذور والثمار**، مرجع سابق، ص٤٨٣.

إن التفكيك ينزع القناع عن كثير من مظاهر التحيّز الكامنة في النماذج الإدراكية والتحليلية المهيمنة، إلّا أنه يعجز عن تقديم البديل. ومن هذا المنطلق، يبرز التأسيس بوصفه "عملية تركيبية تتجاوز التفكيك فهي تتطلب نحت نماذج مختلفة والربط بينها، كما تتطلب الغوص في كل الأبعاد السياسية والاقتصادية والدينية والمعرفية للظاهرة، وإعادة ترتيب الوقائع وتصنيفها في ضوء النماذج التحليلية الجديدة."[٢٥]

ويُبرِز المسيري في هذا الفصل فضل الدراسة الأدبية في تعميق وعيه الفكري، فقد أفادته مناهج البحث الأدبي في "تفكيك وإعادة تركيب الظواهر اليهودية والصهيونية والإسرائيلية."[٢٦] وقد قدّم لذلك عدداً من الحالات التي أدرك كنهها باستعمال أدوات التحليل الأدبي التي تُدرِّب الدارس على صياغة النماذج وتوظيفها.

ولا يقتصر المؤلف في حديثه عن الموسوعة على البُعد الفكري، وإنما تعرّض أيضاً لما واكب عملية التأليف والنشر من مواقف، دون إغفاله –طبعاً– شخصيات قاسمت الباحث همّ التأليف بشكل مباشر أو غير مباشر.[٢٧]

خُتِم هذا الفصل بالحديث عن تلقّي النقّاد للموسوعة. وعلى الرغم من إشادة المسيري بعدد من الدراسات التي أدركت الرؤية المعرفية الكامنة في كتاباته، إلا أنه يشكو ممّا تعرّض له –مدّة طويلة– من إساءة تصنيف؛ إذ كان يوضع غالباً في خانة البحث السياسي، مما كان يدفعه إلى إلحاق العناوين الفرعية الموجِّهة بالعناوين الرئيسة للكتب.

أمّا بخصوص الموسوعة فقد لاقت احتفاء إعلامياً منقطع النظير، لدرجة أبدع معها المسيري شعاراً طريفاً –يُسوّغ رغبته في الاحتماء بعالمه الهادئ واجتناب الصخب الإعلامي– يقول فيه: "أنا أفكر إذن أنا غير موجود."[٢٨]

وقد أثنت الدراسات التي تناولت الموسوعة على جهد المؤلِّف وقدرته على بناء نموذج معرفي إدراكي مغاير لما هو مألوف.[٢٩]

---

[٢٥] المرجع السابق، ص٥٤٠.

[٢٦] المرجع السابق، ص٥٥٠.

[٢٧] المرجع السابق، ص٥٦١ وما بعدها.

[٢٨] المرجع السابق، ص٤٨٣.

[٢٩] من أبرز ما يمكن أن يُرجَع إليه في تلقّي عبد الوهاب المسيري؛ كتاب:

– **في عالم عبد الوهاب المسيري حوار نقدي حضاري**، القاهرة: دار الشروق، ط١، ٢٠٠٤م. وكتاب:

يبدأ المسيري الفصل الخامس المعنون بـ"الموسوعة الموضوعات الأساسية" بالنماذج التحليلية المتبناة في الموسوعة والمحصورة في ثلاثة نماذج أساسية يقول عنها: "النموذج الأول والثاني مترابطان هما الحلولية والعلمانية الشاملة، تعاملت من خلالهما مع المستوى العام للظواهر اليهودية والصهيونية والإسرائيلية... أما النموذج الثالث، نموذج الجماعات الوظيفية، فقد استعملته للتعامل مع مستويات أكثر تخصصاً."[٣٠] وقد أسهمت هذه النماذج في إعادة اكتشاف اليهود؛ إذ توصّل الباحث إلى أن الخطاب التحليلي العربي ينحو في تعامله مع الغرب منحيين متعارضين؛ فهو إمّا يميل إلى التعميم، وإمّا إلى التخصيص التآمري. لذلك استعمل المسيري –على سبيل المثال لا الحصر– نموذج الجماعات اليهودية بدل مصطلح اليهود، وانتهى انطلاقاً من هذا النموذج إلى أن ما يُقال "عن "العبقرية اليهودية" فيه شطط، وأن الحديث عن "الجريمة اليهودية" لا يقل عنه شططاً، فكلا المفهومين يكتفي بالنظر إلى اليهود من الداخل، ويراهم بحسبانهم كلاً منعزلاً عن محيطه الحضاري، ويرى أن "يهودية" اليهودي هي المسئولة عن سلوكه، عبقرياً كان أم إجرامياً."[٣١]

ويُتوَّج الجزء الثاني من رحلة المسيري بفصل سادس عنوانه "في عالم الأدب والفن." وقد تناول فيه حياته داخل أسوار الجامعة؛ فقد كانت المدّة التي قضاها في جامعة الملك سعود بالرياض أسعد أيام حياته "وأكثرها ثراء من الناحية الفكرية."[٣٢] ومع أن تجربة التدريس في الجامعة استغرقت حيّزاً زمنياً مهماً من حياة المؤلِّف (١٩٦٩م–١٩٩٠م) إلّا أنه لا يوليها عناية كبيرة في سيرته الفكرية، ولعل الأمر يرجع –أساساً– إلى أنَّ هذه التجربة لم تكن حافلة بزاد فكري من النوع الذي كان يأمل المسيري أن يبلغه. وذلك ما نستشفه بالخصوص من قَصْره الحديث عن جامعة عين شمس وجامعة الرياض من جهة، ومن جهة أخرى رؤيته أنَّ الحياة داخل كلية البنات كانت "بوجه عام خالية من الهموم الفكرية."[٣٣]

– **عبد الوهاب المسيري في عيون أصدقائه ونقاده**، سوريا: دار الفكر، ط١، ٢٠٠٨م.

[٣٠] المسيري، **رحلتي الفكرية في البذور والجذور والثمار**، مرجع سابق، ص٥٧٩.

[٣١] المرجع السابق، ص٦٠٤.

[٣٢] المرجع السابق، ص٦٣٨.

[٣٣] المرجع السابق، ص٦٤٠.

المهمّ من هذه المرحلة أنها شكّلت فضاء جمع بين المسيري والأدب، وأنتج لنا عدداً من الدراسات الأدبية التي شكّلت إضافة نوعية للأدب العربي.

في خضم اهتمام المسيري بالأدب قام بدراسة اللغة الأدبية المجازية لكونها "تحاول الإفصاح عن المفارقات والتعبير عن الشيء وعكسه في ذات الوقت، وأن تتعامل مع المحدود واللّاحدود، والمتناهي واللّاتناهي، وما يقاس وما يستعصي على القياس."[٣٤] ثم أسهم في حقل الترجمة الأدبية؛ وذلك بترجمته عدداً من النصوص الأساسية للرومانسية الإنجليزية،[٣٥] وكذلك مسرحية "افتتاحيات الهادئ."[٣٦] كما كتب عدداً من المقالات عن الشعر الرومانسي الإنجليزي ورؤيته الرومانسية للكون، ودرس أيضاً شعر الهايكو والأدب الفلسطيني،[٣٧] وقد تعدّى اهتمامه "الأدب الرسمي" إلى الأدب الشعبي، فكتب دراسة لبعض الأعمال الفنية المصرية.

ولأنَّ دراسة الأدب تتطلّب معرفة بالخطاب اللغوي؛ "فالأدب في نهاية الأمر هو تعبير لغوي مكثف، شكله اللغوي هو معناه،"[٣٨] فقد برز هذا الاهتمام من خلال تتبع الباحث للتطوّر الدلالي لعدد من الكلمات (طبيعة، فن، لذة)، فضلاً عن إنجازه دراسة عن علاقة الدال بالمدلول، تناولها في مقالة عنوانها "هاتان تفاحتان حمراوان: دراسة في التحيز وعلاقة الدال بالمدلول"، ناقش فيها اعتباطية العلاقة بين الدال والمدلول عند دعاة ما بعد الحداثة، وذلك ما يتجلّى في عدد من مصطلحات الحداثة الغربية من قبيل: التقدّم، والنظام العالمي الجديد، وغيرها.

وقبل أن ينتقل المسيري إلى الحديث عن علاقته بقصص الأطفال، يُعرِّفنا ببعض الأدباء الذين تعرَّف إليهم بشكل مباشر، مثل: صلاح عبد الصبور، وأمل دنقل، وأحمد بهجت، ونجيب محفوظ، وإحسان عباس، وغيرهم.[٣٩]

---

[٣٤] المرجع السابق، ص٦٤١.

[٣٥] العمل كان بالاشتراك مع الأستاذ علي السيد، وصدر بعنوان "الرومانتيكية الإنجليزية: النصوص الأساسية وبعض الدراسات الأدبية" عن سلسلة الألف كتاب عام ١٩٦٥م.

[٣٦] ذكر في السيرة أن الكتاب نُشِر عام ١٩٨٨م لكنه نُشِر عام ١٩٨٩م.

[٣٧] من الأعمال المرتبطة بالأدب الفلسطيني، يذكر المسيري كتاب "العرس الفلسطيني" الصادر عام ١٩٨٣م، و"أرض الحجر والزعتر".

[٣٨] المسيري، **رحلتي الفكرية في البذور والجذور والثمار**، مرجع سابق، ص٦٦١.

[٣٩] المرجع السابق، ص٦٥٥ وما بعدها.

إن اهتمام المسيري بأدب الطفل[٤٠] جزء لا يتجزأ من دراسته للأدب الإنجليزي والأمريكي؛ إذ قرأ لـ"ڤلاديمير پروپ" الذي درس بنية الحكاية الشعبية، وقرأ لكاتب الأطفال "درسو Drseuss، بالإضافة إلى أنه عاش طفولة غنية بالقصص الخرافية الشعبية. وفي هذا السياق يقول: "ومن الموضوعات الأثيرة لديَّ في دراستي للأدب موضوع الانتقال من البراءة إلى الخبرة، ثم العودة إلى البراءة الأولى، ولعل هذا يفسر شغفي بأدب الأطفال."[٤١] فالمسيري يرى في أدب الطفل براءة لا تنكسر؛ حتى وإن كان فيها قدر من الشر أو بعض الصراع.

أمّا عن الدافع الأساس وراء الإبداع للطفل فهو ابنته "نور" ثم ابنه "ياسر" اللذان قضيا جزءاً كبيراً من طفولتهما في الولايات المتحدة، فكان على الأب أن يُؤثِّث لهما منظومة أخلاقية تقيهما عنف النموذج الغربي الاستهلاكي. هكذا ركب بقصصه وعالمه الأسطوري نماذج معرفية أكثر إنسانية. يقول المسيري عن ذلك العالم الأسطوري: "كان هذا العالم الأسطوري القديم/ الجديد يدور حول ثلاث شخصيات نور (ابنتي) وياسر (ابني) وانضم إليهما نديم (حفيدي). وهناك أيضاً الديك حسن، الذي يؤذن فنرجع من عالم الخيال إلى عالم الواقع. ولكن الشخصية الأساسية هي الجمل ظريف، وهو جمل إنساني، أخ لأولادي، و د. هدى هي أمه (أما، أنا صاحبه، فليس لي مجال في عالمه!)"[٤٢]

إن كتابة قصص الأطفال عند المسيري كانت تنطلق من القصص التقليدية، ولكن بتحويرها بشكل جوهري حتى تتواءم والعصر الحديث،[٤٣] وتستجيب للنماذج المعرفية الأساسية "في عمليتي الإدراك والتحليل، فثمة نموذج معرفي أساسي كامن وراء كل القصص، وهو نفس النموذج الكامن وراء الموسوعة من رفض للموضوعية المتلقية والنصوصية البلهاء والمعلوماتية الفجة والسببية الصلبة (...) إلى الإيمان بالعقل التوليدي

---

[٤٠] حاز المسيري على الجائزة الأولى للتأليف للأطفال من ضمن جوائز سوزان مبارك للطفل عام ١٩٩٩م. كما حصل على عدّة جوائز (بعضها دولية)، خاصة عن ديوانه للأطفال "أغنيات إلى الأشياء الجميلة".

[٤١] المسيري، **رحلتي الفكرية في البذور والجذور والثمار**، مرجع السابق، ص٦٧٠.

[٤٢] المرجع السابق، ص٦٧٤.

[٤٣] من ذلك، ما نجده من حضور لشخصية "ذات الرداء الأحمر".

(...) وبالحيّز الإنساني (المختلف عن الحيّز الطبيعي/المادي) الذي يتحرّك فيه الإنسان ويحقّق فيه إنسانيته، فيؤكد إرادته وحريته ومقدرته على الاختيار."[٤٤]

ومن ضمن الاهتمامات الأخرى للمسيري، التي نكتشفها في السيرة، شغفه بفن العمارة. فإثر زيارته لمتحف "الجوجنهايم" في نيويورك بدأ إحساسه "بأهمية العمارة والفنون التشكيلية يتعمق، بحسبانها الأشكال الفنية التي يعيش معها الإنسان وتشكل كيانه ورؤيته في كل لحظة دون أن يشعر."[٤٥] ويتضح ذلك الانشغال المعماري في ما بذله المسيري من جهد تأثيث وتصميم عمارته، فقد توخّى في ذلك التجديد مع الحفاظ على الطابع الأصيل سالكاً لذلك مسلك المحاكاة التي "تحاول أن تصل إلى جوهر شيء وتولد منه ما يتناسب ووضعنا الحديث."[٤٦]

وفي نطاق الولع بفن العمارة، يمكن إدراج جمع المسيري التماثيل، وعنايته بخُلُف الكتب (الكتب الفنية)، وكذا متابعته حركة عالم الأزياء، وتذوقه الموسيقى الكلاسيكية وبعض الأغاني العربية والغربية، وتجاوبه مع اللوحات الفنية الانطباعية وما بعد الانطباعية.

ذُيِّلت السيرة الفكرية بمسرد لأعمال المسيري المنشورة؛ سواء باللغة العربية أو باللغة الإنجليزية، وكذلك مؤلفاته المترجمة إلى اللغة الفارسية والبرتغالية والتركية، والدراسات والندوات التي تناولت فكره، وآخر ما نجده في الكتاب مجموعة من الصور بلغ عددها إحدى وسبعين صورة؛ تمتد تاريخياً من عام ١٩٤١م؛ وقد التُقِطت للمؤلِّف أول صورة وعمره —وقتئذٍ– لا يتجاوز ثلاث سنوات، أمّا آخر صورة فجمعته مع الرئيس الجزائري أحمد بن بلا عام ٢٠٠٥م.

ثانياً: السيرة الفكرية؛ رؤية من الخارج

تُوجِّه السيرة الفكرية للمسيري أفقَ المتلقّي منذ البداية؛ إذ ترتقي من مستوى السير الذاتية الموضوعية إلى مرقى السير غير الذاتية غير الموضوعية. فهي لا تتناول قصة حياة

[٤٤] المرجع السابق، ص٦٧٩.
[٤٥] المرجع السابق، ص٦٨٤.
[٤٦] المرجع السابق، ص٦٩٣.

المؤلف الخاصة وإنَّما تُؤثِّث بنيتها السردية انطلاقاً من مواكبتها لحياة المؤلِّف الفكرية بوصفه مثقفاً عربياً مصرياً "يختزل" تجربة من جايله.

ويحضر الاتجاه الفكري في الكتاب في عرض المؤلِّف لأفكاره الأساسية التي تقوم عليها معظم أعماله بطريقة يرى "أنها مبسطة، كما أنها تبين كيف تشكلت هذه الأفكار ومدى ترابطها وبعض تطبيقاتها."[٤٧] ولذا، فحتى البُعد الذاتي يكتسب أهميته من جهة إلقائه الضوء على التطور الفكري للمسيري، وهي الغاية التي علّل بها المؤلِّف استبعاده بعض تفاصيل حياته الخاصة (الذاتية).

على مستوى الخطاب السردي، ابتعد المؤلِّف عن السرد المباشر، وركّب منهجاً يقوم على عرض حياته من خلال أنماط وقضايا ومقولات تحليلية كامنة ومتواترة في كتاباته وحياته، "دون التقيد بمرحلة زمنية محددة. فهذه رحلة فكرية يتم سردها من خلال موضوعات... لا من خلال مراحل متتابعة."[٤٨] وقد أثر النموذج التحليلي الذي اعتمده المسيري في جعل الرؤية السردية المؤطرة للعمل (رؤيةً من خلف)؛ لكون السارد عارفاً بكوامن الشخصيات وخباياها. وفي هذا المقام، نشير إلى اختلافنا مع الأستاذ إبراهيم الدرويش الذي يرى أن الكاتب يقلب في سيرته المعايير "المعروفة في السرد الذاتي، التي تركّز على أثر البيئة على تكوين الشخصية الفكرية والثقافية، مركزاً -على عكس ذلك- على أهمية التعليم والمعرفة في تشكيل رؤية الفرد."[٤٩] إن التحليل يتناقض كلّية مع تصوّر الدرويش؛ إذ أبرز المسيري -أكثر من مرة- تأثير العوامل المحيطة به. كما أن البيئة لا علاقة لها بالسرد الذاتي، والتعريف الشائع للسيرة الذاتية لا يربطها مطلقاً بالبيئة.[٥٠]

إنَّ بناء المسيري سيرته وفق تصميم يولي الأهمية للموضوعات والأفكار، جعل منطق بنية الفصل أكثر هيمنة من منطق التعاقب التاريخي للأحداث؛ فبنية الفصل سمحت

---

[٤٧] المرجع السابق، ص٦.

[٤٨] المرجع السابق، ص٧.

[٤٩] درويش، إبراهيم. قصة تشكّل مفكّر عربي كبير: المسيري في سيرة غير ذاتية... غير موضوعية!، ضمن: **في عالم عبد الوهاب المسيري: حوار نقدي حضاري**، مرجع سابق، ص٢٢٦.

[٥٠] تُعرَّف السيرة الذاتية بأنها "حكي استعادي نثري يقوم به شخص واقعي عن وجوده الخاص، وذلك عندما يُركِّز على حياته الفردية، وعلى تاريخ شخصيته بصفة خاصة". انظر:

- لوجون، فيليب. **السيرة الذاتية: الميثاق والتاريخ الأدبي**، بيروت: المركز الثقافي العربي، ص٢٢.

للمؤلِّف بعقد مقارنات بين المواقف والأفكار، ومنحته حرية أكثر في استحضار الملمح الفكري للكتاب.

وإذا كان المسيري ينفي عن سيرته البُعد الذاتي فإنه يستبعد البُعد الموضوعي[٥١] كذلك، فهي رحلة غير ذاتية غير موضوعية. وفي هذا السياق يقول: "لا أذكر القضايا الفكرية المجردة وحسب، وإنما أشفعها دائماً بأحداث من حياتي أو اقتباسات من كتاباتي تبيّن كيف ترجمت القضية الفكرية (العامة) نفسها إلى أحداث ووقائع محددة في حياتي الشخصية (الخاصة)."[٥٢] ولكن ما يُوحِّد عُضوياً البُعدين هو ارتباطهما بسلسلة من الأحداث والوقائع التي يقتبسها المؤلِّف من حياته. ومع أن هذه التمثيلات المتكرّرة قد تُثقِل كاهل النص، إلّا أنها تكسر عبء الحمولة الفكرية التي ينجر وراءها المؤلِّف أحياناً كثيرة، وهنا أيضاً لا بدّ من الإشادة بالأسلوب القصصي المتميّز للمسيري؛ فهو يُعبِّر عن الحدث الذي يتبدّى بسيطاً بنسق سردي مشوّق يتفاعل معه المتلقي.

إن تألق الانسجام بين الموضوعي/ الذاتي تأكد في "الرحلة المصوّرة" أيضاً؛ فالملاحظ أن صور المسيري الواردة في الكتاب يمكن أن توصف بأنها غير ذاتية وغير موضوعية كذلك؛ لكون موضوعاتها أو سياقاتها تحيل -بشكل أو بآخر- على التجربة الفكرية للمسيري أكثر من ارتباطها المباشر بحياته الشخصية "الذاتية" من جهة، ولأنها تستحضر المسيري مفكراً وإنساناً من جهة أخرى، بل إن بعض الصور هي في ذاتها فكرة، كما هو الحال —مثلاً- بالنسبة إلى صورة (ماسحو الأحذية في الولايات المتحدة ١٩٦٣م)، ولو رغب القارئ في توزيع هاته الصور على الكتاب لوجد لكل منها موضعاً ملائماً.

ويتأكد أكثر تفرّد المسيري في إدراج صور حياته في سيرته الفكرية حينما نقارن عمله بعمل "ماذا علمتني الحياة؟"[٥٣] لصديقه جلال أمين الذي هيمن على ملحقه للصور الطابعُ العائلي/ الذاتي.[٥٤]

---

[٥١] للتوسّع في مفهومي "الذاتية" و"الموضوعية"، يمكن الرجوع إلى دراسة الدكتور عبد الوهاب المسيري في:
- المسيري، عبد الوهاب. "نحو نموذج تفسيري اجتهادي (بدلاً من النموذج الموضوعي المتلقى)"، **مجلة إسلامية المعرفة**، س٤، ع١٦، ربيع ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.

[٥٢] المسيري. **رحلتي الفكرية في البذور والجذور والثمار**، مرجع سابق، ص٨.

[٥٣] أمين، جلال. **ماذا علمتني الحياة؟ سيرة ذاتية**، القاهرة: دار الشروق، ط٣، ٢٠٠٧م.

[٥٤] المرجع السابق، الملحق، ص٣٩٩ وما بعدها.

وتوجد سمة أخرى ترفع من شأو سيرة المسيري، هي مراعاته لخصوصية الآخرين؛ إذ إنه كثيراً ما يستبعد الأسماء الحقيقية عند عرضه لبعض الوقائع حتى لا يحرج أصحابها،[٥٥] وهو ما يغيب مثلاً في سيرة جلال أمين الذي يقول عن عمله: "وأنا واثق تماماً من أنه لا يزال فيه ما يؤلم ويغضب، وأن فيه أيضاً قدراً زائداً من النرجسية أو اهتماماً –زائداً عن الحدّ– بنفسي."[٥٦]

أخيراً، نتوقّف عند قلق مفهوم جنس السيرة عند المفكّر العربي؛ فقد احتار المسيري في طبيعة الجنس الأدبي لعمله، فهو لا يدري هل ما كتبه "نوع أدبي جديد" أو "نوع أدبي قديم."[٥٧] والسؤال ذاته أثار قلق الراحل محمد عابد الجابري؛ إذ تساءل في بداية سيرته قائلاً: "هل يتعلّق الأمر بجنس في الكتابة جديد، أم بمجرد اسم آخر يضاف إلى قائمة الأسماء التي تطلق على جنس أدبي معروف منذ القديم."[٥٨]

---

[٥٥] المسيري. **رحلتي الفكرية في البذور والجذور والثمار**، مرجع سابق ص٦. نشير إلى أن الجابري يتبنّى مبدأ المسيري ذاته. للاستزادة، يمكن الرجوع إلى:

– الجابري، محمد عابد. **حفريات في الذاكرة من بعيد**، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ط١، ١٩٩٧م، ص١٠.

[٥٦] أمين، **ماذا علمتني الحياة؟ سيرة ذاتية**، مرجع سابق، ص١٠.

[٥٧] المسيري، **رحلتي الفكرية في البذور والجذور والثمار**، مرجع سابق، ص١٢.

[٥٨] الجابري، **حفريات في الذاكرة من بعيد**، مرجع سابق، ص٧.